فكاهات

رواية

عين الفقيد[1]

تأتي السعادة احياناً من طريقٍ لا يهتدي اليها انسان ولم تخطر لمخلوقٍ ببال كما يتبين من القصة التالية

روي انهُ كان في باريز مصوّرٌ يدعى جان قد أُوتي وهو في الثلاثين من عمره مهارةً غريبة في تصوير المناظر الطبيعيّة ولكنهُ كان قليل البخت فلم ينل لدى طلاّب الصوَر شهرة تعدل حذاقتهُ ولم يكافأْ في المعارض بجائزة يوسع بها نطاق عملهِ ولا بوسامٍ ينوّه بقدرهِ ويتيح لهُ مسابقة النظرآء والانداد فصغّر الفشل نفسهُ وخيّب النحس أملهُ فهجر المعارض وادمن العمل تاركاً لذّات الحياة معرضاً عن معاشرة الاخوان والخلاّن كأَنهُ أحد النسّاك او الرهبان . وكان حانوتهُ في الطبقة الرابعة من بنآءٍ فخيم يسكنهُ جماعةٌ من اهل اليسار لا يعرفونهُ لقلة خروجهِ من محلهِ ولا هو يعرفهم اذ لا علاقة لهُ معهم فكأَنهُ طائرٌ لهُ عشٌ منفرد في احدى زوايا سطوحهم . وكان يجد في كثرة الشغل عزآءً وسلواناً ومنجاةً من اليأس والقنوط شأن كلّ شهمٍ أبيّ النفس تترفع بهِ نفسهُ عن التدليس والمصانعة وتكره التذلُّل لادنيآء النفوس

(١) معربة عن الفرنسوية بقلم خليل افندي الجاويش احد منشئي جريدة الاهرام

وفي ذات يومٍ بينما كان جالساً لدى احدى صوَرهِ وهو حزينٌ كاسف البال طرق بابهُ طارق واذا بالداخل كاتب حسابات المحلّ الذي يبتاع منهُ ألوان التصوير فحسب عند ما رآهُ انهُ آتٍ لاستيفآء حساب سيدهِ فقطب وجههُ ولكن الكاتب دنا منهُ وقال انني أريد منك حاجةً صغيرة ان قضيتها لي صيرتني شاكراً فضلك مدى حياتي لكنني أرجو منك أن لا تهزأ بي ولا تستخف بطلبي . وذلك أنّ في البيت المقابل لنافذة محلك هذا فتاة حسنآء في مقتبل الشباب هي خادمة صاحبة المنزل قد شغفت بحبها حتى كاد عقلي يضيع ورشدي يطير وأريد ان اكتب اليها ابوح لها بسرّ غرامي ولكنني لا اعرف كيف اخطّ رسالةً في هذا المعنى الدقيق تجتذب فؤادها وتميلها نحوي فترحم شبابي وتخفف عذابي . وقد فتشت في الكتاب المسمى « امين اسرار العشاق » عن رسالةٍ ملائمة لحالي فلم أجد وخشيت ان انقل لها رسالةً لا تقدر على فهم معانيها فجئتك راجياً ان تكتب عن لساني رسالةً افهمها بها قصدي واطلعها على حقيقة امري

فقال المصوّر انها لخدمة خفيفة هينة وتناول محفظة الورق واختار منها ورقة لطيفة وغلافاً ناصعاً وجلس الى مائدةٍ صغيرة وعرك جبينهُ ثم كتب الرسالة على ما حضرهُ ودفعها الى الفتى وقد كتب فيها ما يأتي

« ايها الملك الكريم

كيف ارى مثل جمالكِ الفتان ولا أهيم بهِ وجداً وكلفاً وكيف اذوب جوًى وغراماً ولا استميح رقة فؤادكِ ان تعطفي على سقمي ولو بنظرة حبٍّ من عينيكِ الفاتنتين تحيي فؤادي وتنفي سهادي . انني لا اقدر ان

اصف لكِ مقدار ما اقاسي فيكِ من الوجد والهيام وقد غالبت الشوق اشهراً طوالاً حتى اعياني كتمانهُ فجئت ابوح لكِ بما يكنهُ ضميري والله يعلم ان حبي لكِ حبٌّ طاهر وليس لي من امنيةٍ الا ان تشاطريني هذا الحب ثم ان اشاطركِ حظي من حياتي بل ان اجعل حياتي كلها وقفاً على مسرّتكِ ورضاكِ وها انني اضع قلبي بين يديكِ وانتِ مخيرة بين ان تنبذيهِ وتتركيهِ يحترق بنارهِ وبين ان ترحميهِ وتطفئي لهيب اوارهِ وحاشا لكِ الاّ ان تقابلي هذا الحب بمثلهِ والسلام »

فتناول الفتى الرسالة شاكراً وهرول بها مسرعاً الى بيت حبيبتهِ ووقف المصوّر ينظر اليهِ من النافذة فرآهُ يكلّم البواب ثمَّ ألقى في كفّهِ قطعةً من الذهب وبعد ذلك قرع الباب فأتت الفتاة تترنح في مشيها ترنح السكرى فحدّثها هنيهةً وسلمها الرسالة فتناولتها وقد صبغ الحيآء وجنتيها واقفل الباب وانصرف طائراً فرحاً. واسرعت الفتاة الى غرفتها فقضّت الكتاب وقرأتهُ اولاً وثانياً وثالثاً وبعد ربع ساعة نزلت الى ردهة الاستقبال وبيدها مكنسة وشرعت تكنس بسرعة مخافة ان تعود سيدتها فتراها متأخرة في عملها فاصاب طرف المكنسة صورة زوج السيدة وفقأ عينها فحلّ محلها خرقٌ قبيح شوّه الصورة كلها ولا بدع فالعين زينة الوجه ونافذة النفس في الجسم. فايقنت الفتاة ان مولاتها ستطردها لا محالة حينما ترى صورة فقيدها على هذه الحالة ولا سيما وانها فقدتهُ منذ عهدٍ قريب وكانت كل يومٍ تقضي ساعاتٍ امام صورتهِ وهي تتذكرهُ وتبكي فحزنت الفتاة لذلك حزناً شديداً

وساقطت لؤلؤاً من نرجسٍ وسقت ورداً وعضّت على العناب بالبردِ

وبعد ان فكرت في الامر حيناً نزلت الى فنآء الدار وتناولت حجراً وصعدت فالقتهُ في ارض الغرفة لتوهم مولاتها ان الجيران رموا بالحجر فاصاب عين الصورة وقلعها ولـكنها فطنت الى ان هذه الحيلة لاتجوز على عاقل ولا سيما وانهُ ليس عند الجيران اولاد صغار فعمدت الى حيلةٍ ألطف وذلك انهـا أخرجت من صدرها رسالة حبيبهـا وجعلتها غلافاً للحجر ووضعت هذه الصرة عند اسفل الصورة وعادت مطمئنة البال موقنةً بان سيدتها ستحسب الرسالة مطيرة اليها على هذه الهيئة بلا غلاف ولا توقيع ثم اقفلت الغرفـة وذهبت تكمل عملها في الغرف الاخرى . ولما عادت مولاتها ويقال لهـا مادام دارساي مرّت في الردهة وهي ذاهبة الى غرفتها وسنحت منها التفاتة نحو الصورة فعند ما رأتها مشوهة ذلك التشويه وقفت لديها حزينـة وقد اخذ منها الغيظ كل مأخذ ثم التفتت الى البساط فرأت الحجر الملفوف بالورقة فتناولتهُ وقرأت الرسالة فزاد غضبها وصاحت من ذا الذي يتجرأ على مخاطبتي بمثل هذه اللغة . ثم اعادت قرآءة الرسالة فخفّ ميزان غضبها ووجد الحنوّ سبيلاً الى قلبها فراحت تفكر في معرفة صاحب الـكتاب وظنّت لأول وهلة انهُ أحد جيرانها فاستدعت خادمتها وسألتها عن الامر فتظاهرت بالدهش والاستغراب واخذت تأسف معها على الصورة فسألتها عن الناس الذين يسكنون تجاه المنزل فسردت لها اسمآءهم حتى انتهت الى ذكر المصوّر فقالت السيدة أظن ان هذا الفتى هو الذي اتى هذه الفعلة . ثم صرفت الخادمة وسارت الى غرفتهـا واستلقت على كرسي طويل وهي تنظر تارةً الى المرآة التي امامها وتارةً الى الرسالة كأنها تقول في نفسها لا جرم ان جمالاً

كهذا يحمل الفتيان على مخاطبتي بمثل تلك العبارات الحبية الرشيقة

وكان عمر هذه الارملة اثنتين وعشرين سنة اي كانت في شرخ شبابها ومنتهى نضارتها وكانت قد أرملت منذ سنة بعد ان تزوجت ببضعة اشهر فاخذ الحزن من فؤادها كل مأخذ وامست تنظر الى المستقبل من ورآء غيوم الغموم وتعتقد ان حياتها اصبحت ممزوجة بسموم الهموم ولكن النسيان يطير بالاحزان على جناح الزمان فلا تلبث عواطف النفس عند اول حادث جديد ان تفيق من سباتها ولا يلبث القلب ان يجدد عهد رغائبهِ الماضي وزمان آمالهِ الخالي وهكذا كان حال مادام دارساي حينما وافتها الرسالة على غير انتظار ولا حسبان فانها كانت ذابلة الجفون كثيرة التنهد تضحك وتبكي في ساعة وتغضب وترضى في لحظة وكانت قد عدلت عن الاختلاط بالناس بعد إرمالها ومالت الى الشعر والموسيقى والتصوير وما اشبه ذلك من الملاهي العقلية فلذا عند ما اطلعت على الرسالة استدلت من حسن انشآئها وكتابتها على أن صاحبها فتىً اديب اريب رقيق العواطف شعريُّ التصوُّر سامي المدارك وكانت قد تلت الرسالة لعاشر مرّة وغضبها قد زال تماماً وحلَّ محلهُ ميل شديد الى معرفة صاحبها وشعرت ان نفسها آخت نفسهُ وعواطفها انطبقت على عواطفهِ ولكنها لم تكن تستطيع ان تجيب على رسالتهِ فارتأت ان تتحقق اولاً هل المصوّر جارها هو كاتبها ثم تسعى الى استكشاف ضميرهِ والاطلاع على سريرتهِ ووجدت ان اقرب وسيلة الى ذلك هي ان تدعوهُ الى اصلاح الصورة التي كان هو سبب تشويهها ولكن دون ارادتهِ . فكتبت اليهِ رسالة في هذا المعنى ودفعتها الى الخادمة

فانطلقت بها الى حانوت المصوّر فلما قرأها اخذ ورقة كالورقة التي خط عليها الرسالة الغرامية واجاب بانهُ يتأسف لكونهِ لا يستطيع ان يجيب دعوة السيدة لأنهُ مصوّر مناظر لا مصوّر اشخاص وسلم الرسالة الى الخادمة . فلما اطلعت عليها سيدتها ورأت ان ورقها وخطها مثل الرسالة الأُولى تماماً حارت في الامر حيرةً شديدة وتعجبت كيف ان فتىً يقدم على مخاطبتها بتلك الصفة التي تدلّ على نهاية الجسارة والوقاحة ثم يحجم عن مواجهتها ويتعلل بعذرٍ فارغ عند ما تطلب مواجهتهُ

ومضت ايام بعد ذلك وخاطر السيدة مشتغل بالمصوّر ليلاً ونهاراً وقد علمت من ربة منزلهِ بواسطة الخادمة انهُ شابٌّ حسن السيرة دمث الاخلاق وانهُ يتغيب احياناً ثم يعود وثيابهُ مكسوّة بالغبار ووجههُ ملوّح بحرارة الشمس وتحت ابطيهِ ازهار متنوعة وانهُ يحب المطالعة وعندهُ مكتبة حافلة بالكتب ومعيشتهُ تدل على رقة حالهِ وقلة مكسبهِ . فزادتها هذه الاخبار عنهُ اهتماماً بامرهِ وميلاً الى معرفة كل احوالهِ فسارت الى أحد تجار الصوَر وسألتهُ ان يريها صورة من صنع المصوّر جان وقالت لهُ انني أقدر صناعة هذا الشاب حق قدرها وأريد الحصول على صورة من عمل يدهِ . فقال التاجر ذلك امرٌ سهل على شرط ان تدفعي لي ٥٠٠ فرنك فدفعت لهُ الفاً واوصتهُ ان ينتقي لها صورة على حسب ذوقهِ . ثم قالت لهُ اني اسافر كل سنة الى ليشون وهنالك مناظر بديعة تشوق الشاعر والمصوّر فما رأيك في كتاب عنها يؤلفهُ احد كبار الكتاب ويزينهُ جان برسومه وانا أقوم بنفقاتهِ تحت اسمك . فاجاب فكر جليل وعمل بديع وانا اتكفل

به وابذل جهدي في سبيلهِ . فطلبت ورقة وكتبت عليها تحويلاً بستة آلاف فرنك ودفعتها الى التاجر وقالت لهُ خذ هذا التحويل واعتبرهُ حساباً جارياً بيننا فادفع لهُ نصف الاجرة وعدهُ بالنصف الآخر بعد اتمام العمل وانصرفت والتاجر يتعجب من سخآئها ويقول لله ما يفعل العشق في قلوب الحسان . ثم ركب عربةً وسار الى محلّ المصوّر وابتاع منهُ صورة بالف فرنك دفعها اليهِ نقداً فاحمرّ وجههُ الاصفر كأَن مآءَ الحياة عاودهُ او دم الرجآء سرى في عروقهِ . ثم ذاكرهُ في امر الكتاب المصوَّر ودفع لهُ من قيمة عملهِ مقدماً خمسة آلاف فرنك واوعز اليهِ بالسفر حالاً الى محلّ المناظر التي ينبغي ان يصوّرها لتزيين الكتاب وقفل راجعاً الى حانوتهِ وجان يتأمل في الاوراق المالية وهو يظن نفسهُ في حلمٍ لا في يقظةٍ . ثم طفح السرور عليهِ فطفق يبكي كولدٍ صغير حتى اذا ذهبت سكرة الفرح ضمّ الاوراق وسار ليتنزه في غاب بولونيا وهو يتغنى في الطريق كالبلبل الولهان وفي تلك الليلة ذهب لحضور التمثيل في الاوپرا وهي اول مرةٍ فعل ذلك في حياتهِ . وكان قد التقى في اثنآء نزهتهِ بجارتهِ وخادمتها وحياهما من بعيد فأَثرت هذه المواجهة في نفسهِ وأوجدت فيهِ عاطفة نحو السيدة لم يكن يجدها قبلاً حتى انهُ نام وفكرهُ لاهٍ بها وصورتها تتخلل منامهُ . ولما اصبح ذهب الى تاجر الصوَر واخبرهُ بانهُ مسافر الى ليشون ثم عاد فجهز نفسهُ بما يحتاج اليهِ وفي المسآء حمل حقيبتهُ وسافر وكان في اثنآء سفره يصوّر ما يشاهدهُ من المناظر الطبيعية البهيجة حتى بلغ مكاناً يشرف على وادٍ فسيح وسهلٍ في آخرهِ شلاّل مآء فنزل بفندق رجلٍ اشتهر بصيد

الدب حتى جعلهُ صيادو هذا الوحش شيخهم وزعيمهم

وفي ذات يوم ذاع بين اهل تلك الناحية ان دُبَّةً تسطو على المراعي وتفترس الغنم فلا يقدر راعٍ على مقاومتها ولا صيادٌ على قتلها فجمع شيخ الجهة طائفة الصيادين واوعز اليهم بان يتألبوا على قتلها وكان بينهم صاحب الفندق فدعا جان الى مرافقتهِ وذهبت الجماعة في فجر النهار حتى وصلت الى مقرّ الدبة . وكان هنالك عين مآء لطيفة رأى جان عندها امرأة ذات قامة رشيقة ومعها دليل فخفق قلبهُ حين رؤيتها وظنها سائحةً انكليزية . ثم شرع الصيادون يتسلقون الروابي وهم سكوت حتى اذا بلغوا الطريق تفرقوا في كل جهة مثنى وثلاث ورباع والمرأة تتبعهم مسرعةً خطاها وعلى وجهها نقاب ادكن اللون وبيدها مخصرة لطيفة الشكل حتى وقفت على مسافة عشرين خطوة من المصور . وانهم لكذلك اذ صاح صاحب الفندق خذوا حذركم وأحكموا رميكم فاستندت المرأة الى صخر وحشا جان بندقيتهُ وبعد قليل اطلق الفندقيُّ عيارهُ وتلاهُ صراخ امرأة فالتفت المصور مذعوراً فرأى الدبة قد دنت من السائحة والدليل يهوّل عليها بهراوتهِ وكان احد جرآئها قد قتل بذلك العيار فهاجت وهجمت هجوماً مخيفاً فذُعرت المرأة وسقط نقابها عن وجهها فتفرس فيها المصوّر واذا هو يرى وجه مادام دارساي وقد علاهُ اصفرار الرعب والذعر . فتعجب من وجودها في ذلك المكان ثم صوّب بندقيتهُ واطلقها على الدبة وهي تحاول ان تفترس الدليل وتمزقهُ فاصابت الرصاصة قلبها فوقعت مضرجةً بدمآئها . فصاح الصياد لا شلَّت يمينك يا جان ثم صاح بالدليل تقدم واسقِ هذا البطل جرعةً من

الشراب الذي معك فهرع نحوهُ وقدم اليهِ زجاجتهُ فشرب منها جرعةً كبيرة من الروم فانتعشت نفسهُ وعادت اليهِ عزيمتهُ وهرول الى ناحية السيدة وكانت قد عادت الى رشدها فالقت عليهِ نظرةً ارتجَّت لها جوارحهُ وملأت بسحرها جوانحهُ فاستعلم بلطف عن حالها وقدم اليها ذراعهُ بحركة كلها ظرف وكياسة فلم يسعها ان ترفض مرافقتهُ وسارت واياهُ وهي تشكرهُ على صنيعهِ وتثني على بسالتهِ واقدامهِ وهو يشعر بقلبها يخفق تحت ابطهِ كانهُ مجرًى كهربآئي متصل بينهُ وبينها . ثم احاط بهما الصيادون واهل ذاك الجوار وصنعوا مأدبةً فاخرة اجلسوا جان في صدرها وجلس عن يمينهِ صاحب الفندق وعن يساره دليل السيدة وهذه جلست ازآءهُ . وسار بعض الناس يحملون الخبر الى ليشون فهيأ اهلها مركبةً زينوها باغصان الشجر وساروا بها الى مكان الاحتفال فاركبوا المصوّر فيها مع صاحب الفندق ومادام دارساي وانطلق الموكب على هذه الصورة حتى اذا بلغ نصف الطريق تلقاهُ شيخ البلدة ومعاونهُ وجماعة من الاهلين ووضعوا جثَّة الدبة وجرّوها على مركبة وساروا تتقدمهم الموسيقى ورجال الشحنة وسكان تلك الناحية ودخلوا البلدة بين اصوات الهتاف واطلاق البنادق والناس كلهم مطوّقون جان بابصارهم كأَن عليهِ من حدقٍ نطاقاً . اما هو فكان همهُ الاول حين وصولهِ ان يصحب حبيبتهُ الى مقرّها فاعتذرت اليهِ واخبرتهُ بانها راجعة في مسآء ذلك النهار الى باريز حيث تسرّ بان تراهُ في منزلها لتجدد لهُ عبارات شكرها . فحياها وسار الى فندقهِ وهو لا يعلم انها قضت ثلاثة اسابيع تستقصي اخبارهُ وتستطلع طلع حركاتهِ وسكناتهِ

دون ان يدري حتى عرفت انهُ الفتى الذي يليق بها ان تحبهُ وتثق بامانتهِ ووفآئهِ . وكل حسن اعتقادٍ بهِ عندما رأتهُ جامعاً بين لطف الشمائل وبين الشجاعة والحزم والمرأة تحب الرجل لثلاث خصال المال والجمال والشجاعة فايقنت بعد الذي جرى انها مُحبَّة محبوبة فاجمعت على ان تهب قلبها لمن منحها قلبهُ وانقذ حياتها وان تصطفيهُ حليلا لها . ولذلك كان اول ما انصرفت اليه عنايتها بعد رجوعها الى باريز انها اذاعت خبر الصيد في جميع الجرائد فجعل الاغنيآء يطلبون صور جان من كل ناحية واذاع التاجر خبر الكتاب المتقدم ذكرهُ فتهافت الناس على اقتنآئهِ قبل طبعهِ

ولما عاد جان الى باريز اخذ الناس يهنئونهُ بفوزهِ ويطلبون في صناعتهِ ويدفعون اثماناً غالية لشرآء رسومهِ فحفل صندوقهُ بالمال ونال شهرة بعيدة . وحين وصولهِ زار جارتهُ الحسنآء المحسنة فتأكدت بينهما اسباب المحبة والولآء وكثرت من ذلك الحين مواعد القرب واللقآء حتى اذا دنا وقت القران وعلمت الخادمة بالامر اعترفت لسيدتها بما كان من امر تلك الرسالة والحيلة التي عمدت اليها لاخفآء ما صنعت مكنستها فغفرت لها ذنبها ان كان يعدُّ بعد الذي جرى ذنباً ووهبتها صداقاً وافراً لتمكنها من التزوج بذلك المحب الذي كانت رسالتهُ سبباً في سعادتهِ وسعادة من كلفهُ كتابتها كما كانت عين النقيد — رحمهُ الله — سبب السعادتين جميعاً لانها قُلعت بعد مماتهِ فاشرق منها نور السعد والنعيم وكانت كذلك الشعر العربي الشهير الذي قلعت عيناهُ فابصر ... والاقدار قد تأتي بالعجائب وللدهر احكام حارت فيها عقول الفلاسفة ومدارك الحكمآء